الدلالة السياقية

د. هدى محمد صالح الحديثي
استاذ مساعد - قسم اللغة العربية
كلية الاداب - جامعة بغداد

تشكل الكلمات المادة الأولية للجملة او العبارة التي تنتقل باللغة من كونها مجموعة من الرموز والارشادات الى نظام ذي قيمة حضورية يتشكل من تناسق تلك الكلمات في مجموعات تحكمها علاقات متبادلة فيما بينها محققة دلالة ذلك التناسق القائم على ركنين اساسيين هما الدال والمدلول حيث تمثل المعاني كائنات غير ملموسة بالقياس الى الوقائع اللغوية المتحققة بالملموس (اللفظ) في النص تكف عن ماهيتها الهياكل التركيبية التي ترد فيها [١] من مبدأ كون (تركيب الجملة وترتيبيها والربط بين عناصرها هو الذي يكون في النهاية التركيب الدلالي للنص فنقطة البدء ترتكز على الجزئيان وصولا الى كلية العمل الابداعي)[٢] وان علاقات الملاءمة بين مداليل الألفاظ هي التي تتحكم في تلك العلاقات التركيبية التي تشكل سبيل الكشف عن (كيفية استخدام الخصائص اللغوية المتعارف عليها لاهداف تأثير خاص)[٣] محققة قصدية اللغة في اكتسابها وظيفة نأثيرية تتحدد فيها مدلولات الدال بحكم تغاير التراكيب اللغوية لأن(كل عنصر لغوي مكانه في نظام معين وأن وظيفته او قيمته تستمد من العلاقات التي برتبط بها مع العناصر الاخرى في ذلك النظام)[٤] ففي ظل التركيب تكتسب الكلمة دلالتها الوظيفية ، وأن تنوع دلالاتها يعود الى طبيعة المعاني ذاتها لأن (المعاني مبسوطة الى غير غاية وممتدة الى غير نهاية واسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة)[٥] وانما يكشف عن تلك المعاني طبيعة السياق الذي ترد فيه لأن معنى كلمة ماهو استعمالها في اللغة او الطريقة التي تستعمل بها او الدور الذي تؤديه ، وانما يتحقق الغرض من نظم الكلمات اذا ما (تتناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل)[٦] اذ (ليس للالفاظ نصيب من حيث هي ألفاظ بوجه من الوجوه) لأنه (لاحال للفظة مع حاجتها تعتبر اذا أنت عزلت دلالتهما

جانبا)[٨]، فان معنى أي عبير على وفق ذلك ليس الا مجموع علاقات المعنى القائمة بينه وبين التعابير الاخرى [٩] ، وأن كل كلمة تاخذ مكانها المناسب لتسهم في اسناد الكلمات الاخرى .[١٠]

وللكلمة في ضوء ذلك – معنيان ، معنى معجمي ومعنى سياقي ، فأما المعنى المعجمي فانه محكوم بادائه دلالة معينة اذ لوخلت الكلمة المفردة من أية دلالة لبطلت وظيفتها في السياق[١١] الا انه على الرغم من ذلك لايشكل قيمة تأثيرية في المتلقي فدلالته محددة بموجب وجوده في المعجم ، ولكن هذا المعنى يتحول بحكم ارتباط الكلمة بما يجاورها من كلمات الى عنصر لغوي ذي تأثير معين تتعدد دلالاته بحسب التركيب الذي يرد فيه لأن (جدلية الاستعمال ترضخ عناصر اللغة الى تفاعي عضوي بموجبه تنزاح الالفاظ تبعا لسياقاتها في الاستعمال عن معانيها الوضعية[١٢].

ولما كانت الكلمة المفردة تشكل اهم مستويات الدلالة فان معاني العبارات التي ترد فيها لاتفهم بمجرد فهم معاني مفرداتها وانما بموجب تحديد كيفية ترابط تلك المفردات والمعاني بموجب علاقات بنائية تشكل هيكلية النص من حيث كان المعنى قيمة مصورة للفظ تتحقق ماهيته في التعبير اللغوي الذي يجسد وظيفة اللغة من خلال الكشف عن علاقة الالفاظ بالمعاني الدالة عليها فليس حسن العبارة (بمجرد اللفظ ولكن صورة وصفه وخصوصية تحدث في المعنى)[١٣].

يجرنا ذلك الى المعنى السياقي للكلمة لان دوران الكلمة مع واصلتها هو الذي يحدد معناها ، فان معنى كلمة مايتحدد وفق مايعرض لها من تقلب (مع جاراتها وازاء حاجتها وعلى قدر ماتقابل من الحالات وتلاقي من الاسباب)[١٤] فان السياق الذي تتشكل فيه الكلمات هو الذي يحكم مدلولاتها اكثر مما يحكمها المعنى الوضعي وهو الذي يجعلها فاعلة في الحدث اللغوي فارتباطها يكون بسياقها الذي يهبها المعنى [١٥] فان أي دال في لغة ما لابد ان تتعدد مدلولاته من سياق الى اخر ، وكذلك ان أي صورة ذهنية مدلول عليها لابد أنها واجدة اكثر من دال في نسيج نفس اللغة المعنية [١٦] ، و(ضمن السياقات اللغوية الحاملة للمعاني فتحصل على تأثير معنوي اسلوبي ينقل مواقع التركيز المعنوي من كلمة الى اخرى ضمن

عوامل الموقف اللغوي واستراتيجية الكلام ومشاعر المتحدث وعلاقته بالسامع او المتلقي) [١٧] وذلك لما يؤديه السياق من دور ثنائي يتمثل في اعتبار الوحدة الكلامية جزء من سياق الظرف اولا ، وفي التدليل على ان هناك شيا مايجري التعبير عنه ثانيا [١٨] وعلى قدر وضوح الدلالة ودقة الاشارة في التعبير يكون اظهار المعنى لأن السياق يكون ذا علاقة مباشرة بتفسير الوحدات الكلامية المكونة للنص التي تنشأ من تلاقي علوم الاصوات والصرف والنحو والمعجم بحيث يمكن عندها ان يقدم المنشئ منهجا لابأس به لما يريد الاخبار عنه فان هذا التفاعل الحاصل في سبيل التأويل هو الذي يخلق الدلالة التي تتنوع الاشكال التعبيرية لها بحكم تنوع العلاقات البنائية ضمن حدود السياق الذي يمثل فيما بعد مجموعة الوقائع التي تعرض للكلمات [١٩] ، فاذا ما اتضحت دلالات التراكيب واستقرت نكون قد وقفنا عند مدلول السياق وحدوده ولتكون الدلالة السياقية حينئذ مجموعة العلاقات البنائية المكونة لوحدة النص فان دل ذلك على شئ فانما يدل على ان كل جزء فيه ملتئم مع سائر الاجزاء في نظام واحد يجعل كل استعمال لغوي خصوصية خاضعة لمنطق ينتظم العمل كله[٢٠] الذي يكون التماسك السياقي بين وحداته اللغوية اول شروطه [٢١] لأن المعنى محصلة تفاعل بين الدوال ومداليلها وانما يتحقق الاثر الاسلوبي لذلك المعنى من طبيعة العلاقات القائمة بينها التي من شأنها اظهار امكانية اللغة في استثارة المتلقي [٢٢] ، تلك العلاقات التي اطلق عليها عبدالظاهر الجرجاني تسمية " معاني النحو"[٢٣] ، وليس المعنى في ضوء ذلك الا محصلة التفاعل الدلالي بين المعاني الالفاظ من ناحية ومعاني النحو التي اقامها المتكلم بين هذه الالفاظ من ناحية اخرى [٢٤] فيشكل التركيب محتوى تلك العلاقات ان لم يكن هو نتاجها وحاصلها ، وقد أدرك عبدالقاهر ضرورة الترابط بين طبيعة البنية السياقية وجمالية الصورة البلاغية في دلالتها ادراكا فعالا للعلامة بين التركيب والدلالة وصولا الى وظيفة اللغة في نقل الصور الذهنية الى واقع ملموس يتمثل في النص الذي تتجلى فيه فاعلية الترابط بين البنية اللغوية والصورة البلاغية التي هي تشكيل وبناء قائم على تحول في البنى على وفق مايقتضيه العقل ولعل في تعليقه على قول الشاعر :

سالت عليه شعاب الحي حين دعا انصاره بوجوه كالدنانير

(فانك ترى هذه الاستعارة على لطفها وغرابتها انما تم لها الحسن وانتهى حيث انتهى بما توخي في وضع الكلام من التقديم والتأخير وتجدها قد ملحت ولطفت بمعاونة ذلك ومؤازرته لها. وان شككت فاعمد الى الجارين والظرف فأزل كلا منها عنن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه فقل " سالت عاب الحي بوجوه كالدنانير عليه حين دعا انصاره" ثم انظر كيف يكون الحال وكيف يذهب الحسن والحلاوة ؟ " مشيرا الى أن السياق هو الذي استدعى هذه الصورة فتكون دلالتها هذه قد تطلبها المعنى العام (والموقف المراد التعبير عنه بالصورة) [٢٦] وانما تحقق التصور الذهني لهذه الاستعارة على هذا النحو لما تضمنه من سعة الدلالة وقوة التصوير .

ويمكننا القول ان عبدالقاهر في تحليله للصورة الاستعارية ولزوم مجيء عناصرها اللغوية على هذا النحو بحيث لو غير ترتيب مواقع الكلمات لاختل المعنى ، انما يلمح الى أن التحول في البنية الذي أحدثه التقديم والتأخير هو تحول في طبيعة العلاقات بين الكلمات مدللا بذلك على فاعلية الترابط من حيث كونها بناء لغويا قائمة على علاقات اسنادية يولدها التركيب ويكون السياق هو المحدد لدلالته لأن (التنوع الدلالي للاستعارة يقابله تنوع هياكلها التركيبية التي تتحقق فيها)[٢٧] حيث يتأثر المعنى الدلالي بنوع البنية الشكلية ويرتبط بها لأن (اختلاف البنيات التشكيلية والمواقع الوظيفية يتبعه اختلاف دلالي وفقا لحالات الاستعمال[٢٨].

والى مثل ذلك أشار عبدالقاهر في تعليقه على الاية الكريمة في قوله تعالى " واشتعل الرأس شيبا " [٢٩] حين يسند مزية الاستعارة الى أن سلك بالكلام طريق مايسند الفعل فيه الى الشئ وهو لما هو من سببه فيرفع

به مايسند اليه ويؤتي الذي الفعل له في المعنى منصوبا بعده مبينا ان ذلك الاسناد وتلك النسبة الى ذلك الاول انما كان من اجل هذا الثاني ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة كقولهم " طاب زيد نفسا . وذلك أنا نعلم أن (شتعل) للشيب في المعنى وان كان هو للرأس في اللفظ . يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك وتوخى به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسنده الى الشيب صريحا فقول ((اشتعل شيب الرأس او (الشيب في الرأس) ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة ؟ .. واعلم أن في الاية شيئا اخر من جنس النظم وهو تعريف (الرأس) بالألف واللام وافادة معنى الاضافة من غير اضافة وهو أحد ما اوجب المزية ولو قيل " واشتعل رأسي " فصرح بالاضافة لذهب بعض الحسن)) [٣٠] وانما تحققت خصوصية الاستعارة هنا في طبيعة العلاقات البنائية وسبيل تصورها للصورة البيانية من حيث كان التركيب يفضي الى تلك الدلالات المتحققة في مبنى علمي المعاني والبيان وهذا ماجعل السكاكي يقول : " ان علم البيان شعبة من علم المعاني لاتنفصل عنه الا بزيادة اعتبار جرى منه مجرى المركب من المفرد" [٣١] باعتبار المجاز أوسع وسيلة لتبيان جوهر اللغة الابداعية التي تتحكم العلاقات التركيبية في اظهار صور المجاز فيها على وجه يرتقي بمستويات التعبير الى الحدود والبلاغة لتحقق بذلك وظيفية الظاهرة اللغوية العائدة الى الطاقة الايحائية المتكونة لها في السياق المعين التي من شأنها ان تبرز انطباعا معنا لدى المتلقي ، فطبيعة العلاقة التركيبية هذه جعلت النقاد يذهبون الى انها هي المجار نفسه (أي ان المجاز ليس شيئا مضافا وانما هو العلاقة نفسها)[٣٢] عندما يكون (المجاز عنصر بالمعنى الكلي اذ يستدعيه السياق الذي يحدد دلالته وهذه " الدلالة يجب أن يطلبها المعنى العام او الموقف المراد التعبير عنه بالصورة)[٣٣] ، وانما

تحققت المزيه في الصوة البيانية بفاعلية بنيـــة الاســناد لأن خصوصيتــها (تركيبية دلالية لاتتحقق في اللفظ دون المعنى ولا في النظم دون اللفظ

انما الحسن فيها من الجهتين ومزيتها وجدت لكلا الامريـــن)[٣٤] .

وفي بيت بشار بن برد القائل فيه:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

نجد الصورة البيانية المتحققة في التشبيه انما كانت نتـــاج العلاقـــة التركيبية التي اشار اليها عبدالقاهر في قوله : (انه لم يرد أن يشتبه(النقـــع) بالليل على حدة و(الاسياف) بالكواكب على حدة ولكنه اراد أن يشبه النفـــع والاسياف تجول فيه بالليل في حال ماتتكدر الكواكب وتتهاوى فيه فالمفـــهوم من الجميع مفهوم واحد والبيت من أوله الى اخره كلاّم واحد ... ولم يتـــأت اتحاد الغرض والمعنى هذا الا بأن جعل مثار النقـــع اســم (كـــأن) وجعـــل الظرف الذي هو (فوق رؤوسنا) معمولا (المنـــــار) ومعلقـــا بـــه ، وأشرك (الاسياف) في (كأن) بعطفه لها على (مثار) ثم بأن قال : (ليـــل تهاوى كواكبه) فأتى بالليل نكرة وجعل جملة قوله(تهاوى كواكبه) له صفة ثم جعل مجموع (ليل تهاوى كواكبه) خيرا لكأن ؟ .. فانظر هل ترى شيئا كأن الاتحادية غير ماعددناه ؟)[٣٥] .

حتى تكون الصورة من وجهة نظر عبدالقاهر قائمة على مبدأ مـــن التشكيل البنائي وانما تتحقق للألفاظ معانيها في السياق الذي ترد فيه فليســـت (المزيه بواجبة لها في انفسها من حيث هي على الاطلاق ولكن نتعـــرض بسبب المعاني والاغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض) [٣٦] لتكون معاني النحـــو فاعلـــة فـــي تشغيل الدلالة وتكون البنية السياقية هي العنصـــر الوظيفـــي الـــذي يحقـــق المطلب الدلالي في تناسبق الالفاظ والمعاني الدالة عليها ، مشيرا في موضع اخر الى ان دلالة الكلمة تتحقق في جملتها ، حين تعرض لقوله تعالى : " يـــا

أرض ابلعي ماءك وياسماء اقلعي وغيض الماء واستون على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين)[٣٧] ، فيقول :(انك لم تجد ماوجدت من المزية الظاهرة والفضيلة الباهرة الا لأمر يرجع الى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض وأن لم يعرض لها الحسن والشرف الا من حيث لاقت الاولى بالثانية والثالثة بالرابعة وهكذا الى ان تستقر بها الى اخرها وأن الفضل نتاج مابينها وحصل من مجموعها ؟ وان شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو اخذت من بين اخواتها وافردت لأدت من الفصاحة ماتؤديه وهي مكانها من الاية ؟ قل : (ابلعي) واعتبرها من غير ان تنظر الى ماقبلها ومابعدها وكذلك فاعتبر سائر مايليها ؟)[٣٨] ، مدللا على انه ليس للعلاقة النحوية ميزة في ذاتها ولا لوضع الكلمات المختارة في موضعها الصحيح ميزة في ذاتها مالم يكن ذلك كله في سياق ملائم يستدعي ترتيب الكلمات ضمن علاقاتها البنائية على النحو الذي يحقق القصد والغرض .

الهوامش

(١) ينظر – الصورة الشعرية في الخطاب النقدي والبلاغـــي – الولـــي محمد ص٢٧ .

(٢) البلاغة والاسلوبية . محمد عبد المطلب ص١٤٥ .

(٣) المصدر السابق نفسه ص١٤٤ .

(٤) علم الدلالة . جون لاينز ص٦٩ .

(٥) البيان والتبين ١/٧٥.

(٦) دلائل الاعجاز ص٤٩-٥٠ .

(٧) المصدر السابق نفسه ص٢٥٩ .

(٨) المصدر السابق نفسه ص٥٠ .

(٩) ينظر : اللغة والمعنى والسياق . جون لاينز ص٦٢ .

(١٠) ينظر المصدر السابق نفسه ص٨٣ .

(١١) ينظر : اللغة والابداع ص١٢٨ .

(١٢) الاسلوب والاسلوبية . عبد السلام المسدي ص٥٨ .

(١٣) دلائل الاعجاز ص٤٨٦ .

(١٤) رسائل الجاحظ ٤/٨٧ .

(١٥) ينظر : على الدلالة . جيرو ص٤٢ .

(١٦) ينظر : الاسلوب والاسلوبية . عبد السلام المسدي ص٥٨ .

(١٧) التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن . عودة خليل ابو عـــودة ص٧٥-٧٦ .

(١٨) ينظر : اللغة والمعنى والسياق ص٢٤٠ .

(١٩) ينظر : دور الكلمة في اللغة . ستيفن اولمان ص٥٥ .

(٢٠) ينظر : فصول في علم اللغة العام . سوسير ص٢٢١ .

(٢١) ينظر : المصدر السابق نفسه ص١٨١ .

(٢٢) ينظر : اتجاهات البحث الاسلوبي .شكري عياد ص١٤٨ .

(٢٣) ينظر : دلائل الاعجاز ص٨١ .

(٢٤) ينظر :مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني . نصر ابو زيد – مجلة فصول مج٥ ع١ لسنة ١٩٨٤ ص١٥ .

(٢٥) دلائل الاعجاز ص٩٩ .

(٢٦) الصورة البلاغية عند عبد القاهر منهجاً وتطبيقاً – احمد علي دهان ص٣٣٧

(٢٧) الصورة الشعرية في الخطاب النقدي والبلاغي ص٢٥ .

(٢٨) عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المفتى في العربية ونحوها – البدراوي زهران ص٢٣١.

(٢٩) سورة مريم الاية (٤).

(٣٠) دلائل الاعجاز ص١٠٠-١٠٢ .

(٣١) مفتاح العلوم ص٧٧ .

(٣٢) الصورة الفنية – فريدمان ص٣٣٧ .

(٣٣) الصورة البلاغية – عند عبد القاهر ص٣٣٧ .

(٣٤) المتطور البلاغي في نقد الشعر – د.ماهر مهدي هلال – مجلة كلية الاداب – جامعة بغداد ع٣٩ لسنة ١٩٩٠ص٢١٥ .

(٣٥) دلائل الاعجاز ص٤١٤ –٤١٥ .

(٣٦) المصدر السابق ص٨٧ .

(٣٧) سورة هود الاية (٤٤) .

(٣٨) دلائل الاعجاز ص٤٥ .

مصادر البحث

١. القرآن الكريم .

٢. اتجاهات البحث الاسلوبي — دراسات اسلوبية — اختبار وترجمة واضافة د.شكري محمد عياد — دار العلوم للطباعة والنشر — الرياض — المملكة العربية السعودية ط١ /١٩٨٥ .

٣. الاسلوب والاسلوبية د. عبد السلام المسدي — الدرا العربية للكتاب — تونس ط٢ / ١٩٨٢

٤. البلاغة والاسلوبية د. محمد عبد المطلب — الهيئة العربية للكتاب /١٩٨٤

٥. التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن — عودة خليل ابو عودة — مكتبة المنار — الاردن — ط١/١٩٨٥ .

٦. دلائل الاعجاز — عبد القاهر الجرجاني — تحقيق محمود محمد شاكر ط٢ / ١٩٨٩. مطبعة المدني — الموسسة السعودية بمصر — مكتبة الخانجي للنشر بالقاهرة .

٧. دور الكلمة في اللغة — ستيفن اولمان — ترجمة د. كمال بشر — القاهرة —١٩٦٣ .

٨. رسائل الجاحظ — او عثمان عمر بن بحر الجاحظ —تحقيق عبد السلام محمد هارون ط١/١٩٧٩ — المطبعة العربية الحديثة — مصر — مكتبة الخانجي .

٩. الصورة البلاغية عند عبد القاهر منهجاً وتطبيقاً د. احمد علي دهمان . ط١ / ١٩٨٦م — دمشق — دار طلاس للدراسات والنشر .

١٠. الصورة الشعرية في الخطاب النقدي والبلاغي — الولي محمد ط١/١٩٩٠ . المركز الثقافي العربي — بيروت —لبنان .

١١. الصورة الفنية — فريد مان .

١٢. عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المفتن في العربية ونحوها — د. البدراوي زهران — دار المعارف — مطابع كل العرب / ١٩٨١م.

١٣. علم الدلالة — بيير جيرو — ترجمة انطوان ابو زيد — البيضاء — ١٩٨٩ .

١٤. علم الدلالة — جون لاينز —ترجمة مجيد عبد الحليم الماشطة — مطبعة جامعة البصرة —١٩٨٠ .

١٥. اللغة والابداع — مبادئ في علم الاسلوب العربي — شكري محمد عياد — ط١/١٩٨٨

١٦. اللغة والمعنى والسياق — جون لاينز — ترجمة د. عباس صادق الوهاب — مراجعة يوئيل عزيز — دار الشؤون الثقافية العامة — بغداد — ١٩٨٧ .

١٧. فصول في علم اللغة العا — فرديناندسوسير — ترجمة د. احمد نعيم الكرامين . دار المعرفة الجامعية — الاسكندرية /١٩٨٥ .

١٨. مفتاح العلوم — ابو يعقوب السكاكي — مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط١/١٩٣٧ .

١٩. مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني — قراءة في ضوء الاسلوبية — د. نصر ابو زيد — مجلة فصول مج٥ ع١ لسنة ١٩٨٤ م .